وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ
رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٥

سُورَةُ غَافِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ
وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ ٣ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ
تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ٤ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ
مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ
وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ
كَانَ عِقَابِ ٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ
وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٧

[٧٥] وبعد أن ذكر جل وعلا جملة من أهوال يوم القيامة قال: وترىٰ يانبي الله يوم القيامة الملائكة محيطين بعرش الرحمن من كل جهة، يمجدون ربهم وينزهونه عن كل ما لا يليق به، وقضىٰ سبحانه بين الخلائق بالحق والعدل، فأدخل أهل الإيمان الجنة، وأدخل أهل الكفر النار، وقيل: الحمد لله رب العالمين علىٰ ما قضىٰ جل في علاه. ولم يذكر القائل؛ لأن الجميع قال ذلك؛ فالحمد لله رب العالمين أولًا وأخرًا. وقد استدل العلماء بهذه الآية علىٰ جواز الصلاة حول الكعبة من جميع جوانبها، تشبيهًا بالملائكة المحيطين بالعرش من جل جوانبه؛ حيث كان المسلمون يصلون في الحرم المكي صفًّا واحدًا وإمامهم بين المقام والركن الذي فيه الحجر الأسود، فكلهم خلف إمامهم لا يصلون الفريضة في الكعبة من الجهات الثانية، وكانوا قليلين؛ فلما كثر المسلمون وكان أميرهم خالد القسري أمرهم أن يتحلقوا حول الكعبة من كل جهاتها.

سورة غافر

سورة غافر مكيّة وآياتها خمس وثمانون آية. ولها اسم آخر هو: سورة المؤمن.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أن هذا القرآن منزل من الله تعالىٰ وحده، لا كما يقول ويروج الكفار: أن محمدًا اختلقه من نفسه أو من غيره، واعلموا أنه جل في علاه الغالب الذي لا يعجزه شيء، والعليم بأحوال خلقه وبافتراءاتهم، لا يخفىٰ عليه شيء منها.

[٣] ثم وصف جل وعلا نفسه ببعض الصفات فقال: إنه غافر الذنب وقابل توبة العصاة المذنبين من المؤمنين؛ بل إنه يفرح بذلك، كما جاء في الحديث[1]، شديد العقاب للعصاة والمستهزئين الساخرين بالله وبرسوله وبكتابه العزيز وبعباد الله المسلمين ، ولم يتوبوا وماتوا علىٰ ذلك، ذو الطول والإحسان والإنعام لعباده الصالحين فضلًا وتكرمًا، وهو جل في علاه المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له، وإليه وحده الرجوع يوم الحساب؛ فيجازي كلًّا بما يستحق. وقدم سبحانه قوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، لأن رحمته سبقت غضبه، ولأنه ربما يغفر من غير توبة، وفي هذا رد علىٰ المعتزلة الذين يقولون: صاحب الكبيرة يخلد في النار.

[٤] واعلموا أيها الناس أنه ما يخاصم في آيات القرآن الدالة علىٰ وحدانيته جل في علاه إلا الجاحدون لهذه الآيات، وإذا كان ذلك كذلك فلا يغرنك يانبي الله تقلب هؤلاء في البلاد وجمعهم للأموال الطائلة عن طريق التجارات والمكاسب ونعيم الدنيا وزهرتها. ولا شك أن الذين يجادلون في آيات الله لإحقاق الحق وإثبات ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ؛ فهذه مجادلة محمودة، أما الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، والتشكيك فيما يعتقده المؤمنون مما ثبت في الكتاب والسنة؛ فهي مجادلة منكرة، وهي من فعل الكفار، وهي المقصودة في هذه الآية، وهذه الآية تنطبق علىٰ كل من يجادل بالباطل فقط.

[٥] واعلم يانبي الله أن قومك ليسوا بأول من كذب رُسُل الله، فقد كذبت أقوامٌ من قبلهم رسلَهم، فكذَّب قومُ نوح نبيَّهُم، وكذا الأقوام من بعده الذين تحزَّبوا وتجمَّعوا علىٰ رُسُلهم كعادٍ وثمود، وقد همَّتْ كلُّ أمة من الأمم أن يقتلوا رسولهم، وقد كانوا يجادلون ويخاصمون بالشرك والباطل ليُزيلوا به الحق، ويُبطِلوا به الإيمان؛ فأخذهم الله وأهلكهم، فانظر كيف كان أخذه إياهم وعقابه لهم؟ لقد كان أشدَّ العذاب وأفظعه، وفي هذا تحذيرٌ لكفار قريش، وتخويفٌ لهم.

[٦] وكما وجبت كلمة العذاب علىٰ الذين كفروا وجحدوا من الأمم السابقة؛ فكذلك وجبت كلمة العذاب علىٰ الذين كفروا بك وكذبوك يانبي الله، وتلك الكلمة: أنهم أصحاب النار، أي: سكانها المقيمون فيها أبد الآبدين.

[٧] ثم أخبر جل وعلا أن الذين يحملون عرش الرحمن ومن حولهم من الملائكة المقربين؛ مقيمون علىٰ تسبيح الله وتقديسه وتنزيهه عمَّا لا يليق به جل في علاه، ومقيمون علىٰ الإيمان بالله حقًّا وصدقًا، ويطلبون من الله الذي وسعت رحمته وعلمه كل شيء أن يغفر لعباده المؤمنين التائبين، وهؤلاء الملائكة يدعون للمؤمنين فيقولون: ياربنا لقد وسعت رحمتك وعلمك كل شيء فاغفر لعبادك المؤمنين، الذين استمسكوا بدينك الحق، وتابوا عن الزلات والهفوات، ونجِّهم من عذاب جهنم الأليم.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٩)، عن أنس، ومسلم (٢٦٧٥)، عن أبي هريرة.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ
مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ
أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ
أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ
إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ
وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ
ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ
مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ
ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ
مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۗ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾

[٨-٩] ويستمر دعاء الملائكة المقربين لعباد الله المؤمنين قائلين: اللهم ربنا وأدخل المؤمنين جنات عدن التي وعدتهم إياها، وأدخل معهم من صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم وأصحابهم ورفقائهم؛ ليكمل بذلك نعيمهم ويتم سرورهم، إنك ياربنا أنت العزيز الغالب القاهر الذي لا يعجزه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها. ويدعون أيضًا قائلين: واصرف عنهم ياربَّنا الأعمال السيئة، وعاقبتها السيئة، فإن من تصرف عنه السيئات في الدنيا، وتغفرها له إن اقترفها يوم القيامة فقد فاز برحمتك، وأدخلته جنتك، وذلك هو الفوز العظيم الحقيقي الذي لا فوز أعظم منه، نسأل الله الكريم من فضله.

[١٠] ثم ذكر جل وعلا أن الكفار في جهنم يلومون أنفسهم ويمقتونها أشد المقت ويتحسرون علىٰ إضاعة الفرصة التي مُنحوها في الدنيا، وفي هذه الأثناء يناديهم خزنة النار قائلين لهم: اعلموا أن غضب الله عليكم بسبب إصراركم علىٰ الكفر أشد وأعظم من غضبكم علىٰ أنفسكم؛ لأنكم كنتم تُدعون في الدنيا إلىٰ الإيمان فأعرضتم وأصررتم علىٰ الكفر والضلال حتىٰ أدرككم الموت؛ فاليوم تجزون بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا عذاب الهون.

[١١] ثم بعد أن يروا العذاب الأليم ويذوقوه يقولون: ياربنا لقد أمتنا مرتين، يوم أن لم نكن شيئًا مذكورًا، ويوم أن انقضىٰ أجلنا في الحياة الدنيا، وأحييتنا مرتين، يوم أن ولدنا، ويوم أن بعثنا من قبورنا، واليوم بعد أن رأينا ما رأينا من العذاب فقد أخذنا الدرس وعرفنا خطأنا؛ فهل لنا من طريق نخرج به من النار لنصحح مسارنا ونؤمن بك، ولكن هيهات أن ينفعهم هذا الاعتراف وهذا الندم.

[١٢] واعلموا أيها الكفار أنه لا أمل لكم في الخروج من النار، وأن هذا العذاب الذي أصابكم كان بسبب أنكم كنتم إذا دُعيتم لإخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ رفضتم وكفرتُم، وأن من كان يُشرك مع الله غيره بصرف العبادة عن الله تؤمنون به وتصدِّقونه؛ فالحكم لله العلي الذي له علو الذَّات والقدر والقهر، الكبير الذي له الكبرياء والعظمة والمجد.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن الله هو الذي يريكم هذه الآيات العظيمة الواضحة التي تدل علىٰ كمال إبداعه وقدرته ووحدانيته، ومن هذه الآيات العظيمة إنزال المطر من السماء الذي هو سبب في إخراج الأرزاق التي في الأرض؛ حيث ينبت الزرع ويدر الضرع وينتج الثمار المتنوعة، وما يتعظ ويستفيد بهذه الآيات إلا من يرجع عن التشبث بما عليه الآباء والأسلاف ويؤوب عن التعلق بالأضرحة والأصنام.

[١٤] وبعد أن رأيتم أيها المؤمنون الآيات الدالة علىٰ وحدانيته، ورأيتم هذا المطر الذي أنزله الله لكم من السماء وفيه رزقكم؛ فعليكم أن تخلصوا العبادة والدعاء لله وحده لا شريك له، ولو أغاظ ذلك أعداء الله من المشركين والفساق؛ فلا تلتفتوا إليهم وامضوا في طريق الحق والدعوة إلىٰ الله.

[١٥] واعلموا أيها الناس أن الله هو وحده صاحب الرفعة والمقام العالي، وصاحب العرش العظيم، وأنه وحده الذي ينزِّلُ الوحي علىٰ رسله الذين اختارهم واصطفاهم، لينذروا الناس ويحذروهم من سوء العذاب يوم القيامة، الذي يلتقي فيه الأولون والآخرون في ساحة المحشر فيقضي جل في علاه بينهم بقضائه العادل.

وسمي الوحي روحًا لأن الأوامر والنواهي تنفذ في روح المؤمن المخلص فتحييه الحياة الطيبة الكريمة في الدنيا والآخرة، ولأنه يحيي المؤمن وينقذه من الكفر كما يحيي الجسم بالروح.

[١٦] وفي ذلك اليوم يكون الناس ظاهرين علىٰ الأرض لا يسترهم شيء، ولا يخفىٰ علىٰ الله شيء من أحوالهم، ثم ينادي جل في علاه: لمن السلطان اليوم؟! فلا تنطق الخلائق ولا تتكلَّم، فيجيب المَلِكُ نفسه قائلًا: لله الواحد المتفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، القهَّار الذي قهر جميع المخلوقات وأخضعها وأذلَّها.

ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ
لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ
يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ
يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ
بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ
كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ
إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ
فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ
عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟
نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾

[١٧] وفي ذلك اليوم تثاب كل نفس بما كسبت في الدنيا من خير أو شر، ولن يُظلم أحد في هذا اليوم؛ لا بنقصٍ من ثوابه، ولا بزيادة في عقابه، ولإحاطته سبحانه بكل شيء علمًا سوف يكون حسابه لعباده سريعًا؛ لأنه لا يحتاج جل في علاه إلىٰ تفكير أو تذكر.

[١٨] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يذكِّر الناس ويحذِّرهم من أهوال يوم القيامة الذي اقترب مجيئه، ذلك اليوم العظيم الذي تكون فيه قلوبهم من شدة الخوف والهلع من عقاب الله قد ارتفعت حتىٰ تكاد أن تسد مجرىٰ الهواء في الحناجر، وهم في هذه الحال ساكتون لا يستطيعون كلامًا، واعلموا أيها الناس أنه ليس للظالمين في ذلك اليوم من صاحب ينفعهم، أو شفيع يشفع لهم.

[١٩] ثم يخبر جل وعلا أنه يعلم ما تختلسه العيون من نظرات، كمن ينظر إلىٰ المحرم مسارقة؛ بحيث يحاول أن لا يراه أحد، ويعلم سبحانه ما يخفيه الإنسان في نفسه من خير أو شر، كما أنه جل في علاه يعلم خائنة السمع، وسيجازي سبحانه كلًّا بما يستحق؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشر.

[٢٠] واعلموا أيها الناس أن الله يقضي ويحكم بين عباده بالعدل التام، والقسط العظيم - لكمال قدرته وعلمه وعدله -، فيجازي كل أحد بما يستحقه من خير أو شر، أما من عُبدوا من دون الله فلا يستطيعون أن يقضوا بشيء لعجزهم وانعدام قدرتهم، ثم بين سبحانه أن الله هو السميع لجميع الأصوات والأقوال، وهو سبحانه البصير بأعمال عباده وأحوالهم.

[٢١] ثم حث جل وعلا الكفار علىٰ الاعتبار بالسير في الأرض فينظروا ويتفكروا كيف كانت خاتمة الأمم السابقة؟ وقد كانت قريش تسير إلىٰ بلاد الشام فيمرون بديار قوم صالح الذين نحتوا من الجبال بيوتًا وقبورًا، ويمرون أيضًا علىٰ المؤتفكة، ويمرون إذا ذهبوا لليمن بالأحقاف قوم هود؛ فلو أشغلوا عقولهم لما عادوا الرسالة وصاحبها؛ فهذه البلاد التي دمرت كانت أكثر حضارة وعمرانًا من قريش وأكبر قوة منهم، ومع ذلك فإن الله أخذهم بسبب ذنوبهم واستمرارهم في الكفر والجحود لآيات الله، ولم يكن لهم من دون الله من يدفع عنهم العذاب الذي كتبه الله عليهم.

[٢٢] ثم ذكر جل وعلا سبب هذا الدمار والهلاك الذي أصاب تلك الأقوام؛ فأخبر بأنهم كذَّبوا رسلهم وجحدوهم، ولم يصدقوهم فيما جاؤوهم به من الآيات البينات الواضحات الدالَّات علىٰ وحدانية الله، وصدْق ما أُرسِلوا به؛ فأخذهم الله وأهلكهم بعقوبته وعذابه، وإنه سبحانه قويٌّ لا يُعْجزه شيء، شديد العقاب لمن كفر به وعصىٰ أمره.

[٢٣] يسلِّي جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ في تكذيب قومه له؛ فأخبر بأنه أرسل موسىٰ عليه السلام بالآيات والحجج والبراهين الواضحة البينة الدالة علىٰ وحدانية الله.

[٢٤] ثم بين سبحانه أنه أرسله إلىٰ فرعون وهو ملك مصر، وهامان وهو وزير فرعون، وقارون وهو صاحب الأموال والكنوز، وهؤلاء هم الذين كانت بيدهم السيادة والرئاسة، وسائر سكان مصر تابعون لهم، وكما يقال: الناس علىٰ دين ملوكهم، ثم إن هؤلاء كذبوا موسىٰ وأنكروا رسالته، وقالوا: إن موسىٰ ساحر كذاب.

وفي هذا تبشير للنبي ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة؛ فكما أن الله نصر موسىٰ علىٰ عدوِّه؛ فسوف ينصر الله نبيه محمدًا ﷺ علىٰ أعدائه.

والآيات التي أُرسل بها موسىٰ هي الآيات التسع الموضحة في سورة الأعراف.

وجاء ذكر قارون مع هؤلاء مع أنه من بني إسرائيل وأنه ابن عم موسىٰ علىٰ الصحيح؛ لأنه يملك القوة الاقتصادية في البلاد، ولأنه مناصر لفرعون وهامان، وهما أهم أسباب ثرائه.

[٢٥] فلما وصل موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وهامان وقارون، وواجههم بالحق الذي جاء به من عند الله وهو هذه المعجزات الظاهرة الواضحة؛ أنكروها وكذبوها، ولم يكتفوا بذلك؛ بل أمروا بقتل المواليد الذكور وترْك الإناث لخدمة الأقباط، ولما يريده فرعون وجنوده بهن، وما عَمَلُ فرعون وتدبيره إلا في ذهاب وهلاك وخسار.

وهكذا يقال لكل كافر ومجرم: لا تغتر بكيدك ومكرك وعدوانك فإن مصيره إلىٰ الضلال والضياع والبطلان.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ
بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ
جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ
كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ
ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ
إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ
إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ
وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾
وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ
مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

[٢٦] ولما رأىٰ فرعون أن بعض بني إسرائيل آمنوا بموسىٰ ازداد غيظًا وحنقًا عليه؛ فقال لأشراف قومه قولته الخبيثة: دعوني أقتل موسىٰ، وليدع ربه الذي يدَّعيه ليخلصه مني، وفي هذا تمويه علىٰ قومه، يعني: كأن قومه هم الذين كانوا يمنعونه من قتل موسىٰ، ثم علل قتله لموسىٰ بقوله: إنني حريص علىٰ مصالحكم وما أنتم عليه، فأخاف أن يفسد عليكم دينكم، أو أن ينشر الفتن والقلاقل في أرض مصر، وادعىٰ أنه هو وقومه هم الذين علىٰ الحق، قال ذلك تحذيرًا لقومه وخبثًا؛ مع أنه يعلم أن موسىٰ علىٰ حق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤]، وشعر أن موسىٰ محروس محفوظ من الله، وإلا فهل فرعون يستأذن أحدًا؛ وهو الجبار الذي يبطش في مملكته بمن شاء وقت ما شاء بغير استئذان من الله.

[٢٧] ولما علم موسىٰ بتهديد فرعون بقتله، لم يزعجه ذلك؛ لأنه مُدْرِكٌ أنه ملتجيء إلىٰ ركن مكين وهو الله جل في علاه؛ حيث قال له سبحانه هو وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦]، ولهذا قال موسىٰ لفرعون وقومه: اعلموا ياقوم أني استجرت وتحصنت بربي وربكم من كل مستكبر عن توحيد الله وطاعته، ومن كل كافر لا يؤمن بيوم الحساب وما فيه من ثواب وعقاب.

[٢٨] ثم إن رجلًا من أشراف قوم فرعون كان يؤمن بالله واليوم الآخر، ولكنه كان يخفي إيمانه، فلما سمع قول فرعون: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ...﴾، فزع وخاف أن تحل النقمة وينزل العذاب من الله، وكان من أسرة الفراعنه، قال الحسن: (هو ابن عم فرعون)، فقال منكرًا علىٰ قومه: كيف يحل لكم أن تقتلوا رجلًا يقول: ربي الله، وقد جاءكم بالمعجزات الواضحات الدلالة الشاهدة علىٰ صدقة، وأنه من عند الله؛ فإن كان كاذبًا فيما يقول فإن وبال كذبه يعود عليه، وإن كان صادقًا وقد أثبت ما يقوله بالأدلة الواضحة؛ فحينئذ ستحل بكم العقوبة من الله التي لا قبل لكم بها إن قتلتموه، واعلموا أن الله لا يهدي للحق من كان متجاوزًا لحدود الله، ومن كان كذابًا في إخباره عن الله تعالىٰ.

[٢٩] واستمر هذا الرجل المؤمن في نصح قومه موضحًا لهم الحقيقة فقال: ياقوم إن الملك والسيطرة لكم اليوم في أرض مصر، فإذا أردتم أن يستمر عزكم وملككم فعليكم التعقل والنظر في ما يخلصكم وينجيكم، أما إذا استمررتم علىٰ الكفر والضلال والمعاندة فمن ينصرنا من عذاب الله وعقابه إن حل بنا؟.

ولكن فرعون لما سمع النصيحة خاف أن يؤثر علىٰ أتباعه؛ فأتاهم من باب أنه يودهم ويسعىٰ لصالحهم، وأنه لا يشير عليهم إلا بما يراه صوابًا وخيرًا لهم، وهو قتل موسىٰ والتخلص منه، وأنه لا يهديهم إلا إلىٰ طريق الحق والصواب؛ فقال تعالىٰ ردًّا عليه: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه:٧٩].

[٣٠-٣١] واستمر ذلك المؤمن الناصح لفرعون وقومه فقال: ياقوم إني أخاف عليكم - إن قتلتم موسىٰ، ولم تؤمنوا به - أن يحل بكم ما حلَّ بالأحزاب الذين تحزبوا علىٰ أنبيائهم ولم يؤمنوا بهم، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، والذين من بعدهم في الكفر والتكذيب، فقد أهلكهم الله بسبب ذلك، وما الله يريد ظُلْمًا لعباده؛ فيعذبهم بغير ذنب اكتسبوه، أو جُرْم عملوه.

[٣٢-٣٣] وقال أيضًا: وياقوم إنيِّ أخاف عليكم من عذاب يوم القيامة؛ فإن من هوْل ذلك اليوم أن يكثر نداء الناس بعضهم لبعض، واستغاثة بعضهم ببعض، وفي ذلك اليوم تولُّون مدبرين قد ذُهب بكم إلىٰ النار، ليس لكم أحدٌ يمنعكم أو ينجيكم من عذاب الله وعقابه، ومن يضلله الله بسبب عناده وإصراره علىٰ الكفر فلا يستطيع أحدٌ هدايته.

وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى
شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ
أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ
وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ
يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ
إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ
دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ
وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

[٣٤] واستمر ذلك الرجل المؤمن في نصحه فقال: ولقد أرسل الله لكم يوسف عليه السلام قبل أن يأتيكم موسىٰ، فأمركم بعبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، وجاءكم بالبراهين الدالة علىٰ وحدانية الله جلَّ في عُلاه فأقمتم علىٰ الشك والتردد وعدم الانقياد والاستسلام في حياته، فلما مات ازداد شككم، وشرككم، وقلتم متخرِّصين متقوِّلين علىٰ الله بلا علم: لن يبعث الله من بعده رسولًا، وبمثل هذا الإضلال أضلكم الله، وثبتكم علىٰ الكفر الذي أصررتم علىٰ البقاء عليه؛ بسبب إسرافكم في الكذب، وتجاوزكم للحق، وشكِّكُم وارتيابكم في وحدانية الله ووعْده ووعيده، وهذا الإضلال جزائيٌّ وليس ابتدائيًّا.

[٣٥] ثم بين جل وعلا وصف المسرفين الكذابين، فقال: الذين يجادلون ويُخاصمون في آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته، وصِدْق رُسُلِه ليبطلوها بغير دليلٍ ولا حجَّة أو برهان؛ فإن ذلك الفعل كبُر وعظُمَ عند الله مقته ومقت صاحبه والغضب الشديد عليه وعلىٰ صاحبه، وكذلك كبُر عند الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وكما طبع الله وختم علىٰ قلوب فرعون وقومه بسبب تكذيبهم وإصرارهم علىٰ الكفر؛ فإنه سبحانه يطبع ويختم علىٰ قلب كل متكبِّرٍ علىٰ الحقِّ وعلىٰ الإيمان والتوحيد، جبَّارٍ بكثرة ظلمه وعدوانه.

[٣٦] ولكن فرعون استمر في عناده وتكبره وكفره، فطلب من وزيره هامان أن يبني له برجًا عاليًا يصعد عليه لكي يصل إلىٰ أبواب السماوات.

[٣٧] ثم بين فرعون أنه يريد أن يبلغ أبواب السماوات لكي ينظر إلىٰ إله موسىٰ الذي يدعىٰ أنه هناك، ثم استمر فرعون في إنكاره فقال بخبث ومكر: وإني متأكد أن موسىٰ يكذب عليكم، وسأثبت لكم كذبه، وهكذا زُيِّنَ لفرعون سوء عمله فرآه حسنًا بسبب فجوره وطغيانه، وصُدَّ عن سبيل الهدىٰ والرشاد؛ لأنه استحب العمىٰ والضلال علىٰ الهدىٰ والحق، وما احتيال فرعون وتدبيره لإيهام الناس أنه محق وأن موسىٰ مبطل إلا في خسار وبوار وهلاك.

[٣٨] ثم استمر مؤمن آل فرعون في نصحه لقومه فقال: ياقوم اتبعوني لنسلك معًا طريق الصلاح والنجاة.

[٣٩] وقال لهم أيضًا ناصحًا: وياقوم: إن هذه الحياة الدنيا ليست بباقية، إنها حياةٌ زائلةٌ متاعها قليل، سرعان ما ينفد ويزول، وإن الدار الآخرة هي دار القرار، والخلود، والاستمرار.

[٤٠] ثم قال له أيضًا: واعلموا ياقوم أن من عمل سيئة من شرك أو فسق أو معصية فلا يُجازىٰ إلا بمثلها، ومن عمل الصالحات من التوحيد والإيمان والطاعة والانقياد وعمل الصالحات، من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان - ذَكَرًا كان أو أنثىٰ -، وهو مؤمنٌ بالله، مُتَّبِعٌ لرسوله ﷺ؛ فأولئك يُدخلهم الله جنات النعيم، يعطون فيها أجرهم ونعيمهم ورزقهم وافرًا، بلا عدٍّ ولا حدٍّ.

* وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾

[٤١-٤٢] ثم استنكر مؤمن آل فرعون موقف قومه منه؛ حيث كانوا يلومونه علىٰ الإيمان ويدعونه إلىٰ الضلال، فقال: ياقوم ما لي أدعوكم إلىٰ الإيمان الذي فيه نجاتكم وفوزكم؛ وتدعونني إلىٰ الكفر والشرك الذي يوصل إلىٰ النار. فواعجبًا لكم تدعونني لأكفر بالله وأجحدَ بآياتِه، وأُشرك معه في العبادة من لي علم محقق بعدم صحة إشراكه، ولا باستحقاقه العبادة من دون الله، وأنا أدعوكم للإيمان بالله العزيز الغالب الذي له القوة كلُّها، الغفَّار كثير المغفرة لعباده المستغفرين.

[٤٣] ولكن اعلموا حقًّا ويقينًا ياقوم أن الذي تدعونني إلىٰ عبادته والإشراك به من الأصنام والأوثان وغيرها؛ لا يستحق العبادة من دون الله، ولا يستجيب لمن دعاه في الدنيا ولا في الآخرة، واعلموا ياقوم أنَّ رجوعنا ومصيرنا إلىٰ الله، وأن المسرفين علىٰ أنفسهم بالشرك، المستكْثرين من الذنوب والمعاصي هم أصحاب النار الذين يصيرون إليها ولا يفارقونها.

[٤٤-٤٥] ولما لم ينفع معهم نصحه ولم يستجيبوا له قال لهم: فستذكرون ياقوم دعوتي إياكم للتوحيد، ونصحي إياكم باتباع دعوة رسولكم، وسوف تندمون علىٰ إعراضكم واستكباركم، وأما أنا فأتوكل علىٰ الله وأسلم أمري إليه، وألتجيء وأعتصم به، إنه جل في علاه بصير بعباده يعلم جميع أحوالهم، وسيجازيهم علىٰ جميع أعمالهم.

[٤٥] ومن حَنَقِهم وحقدهم علىٰ هذا الرجل المؤمن قرر فرعون وقومه اغتياله؛ ثم إن موسىٰ بعد أن يئس من إسلام فرعون وقومه أمره الله بالخروج ببني إسرائيل متوجهًا إلىٰ الأرض المقدسة؛ فعز علىٰ فرعون أن يذهب موسىٰ بعبيدهم وخدمهم من بني إسرائيل؛ فاستنفر فرعون قومه وقواته وحشدهم وتبعهم؛ فنجَّىٰ الله مؤمن آل فرعون منهم، ووقاه من عقوبات مكر فرعون وآله، وحلت النكبة التي لم يحدث مثلها في التاريخ البشري بفرعون وقومه؛ حيث ابتلعهم البحر بحشودهم ودوابهم وأسلحتهم جميعًا.

وإكرامًا لهذا الرجل المؤمن فقد خلد القرآن له هذا الموقف المشرف؛ حتىٰ أنه ورد أن اسم السورة الثاني (سورة المؤمن) والمقصود بالمؤمن: هو مؤمن آل رعون.

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وآله يُعذَّبُون في قبورهم بسبب كفرهم وجحودهم؛ حيث تُعْرَضُ أرواحهم علىٰ النار صباحًا ومساءً وسيستمر هذا العذاب حتىٰ يوم القيامة، وفي ذلك اليوم يقال لملائكة العذاب: أدخلوا آل فرعون جهنم وعذبوهم بأشد أنواع العذاب، جزاء لما اقترفوه من السيئات. وهذه الآية أصل في إثبات عذاب القبر، مع حديث سؤال الملكين في القبر[1].

[٤٧] واذكر يامحمد يوم أن يتخاصم أهل النار ويعاتب بعضهم بعضًا؛ فيقول الضعفاء وهم التابعون الإمعات المقلدون للعصاة والمستكبرين من رؤسائهم الذين كانوا سببًا في إضلالهم: إنا كنا لكم تبعًا، أي: تابعين لكم ومنقادين لهواكم ومسخرين لخدمتكم؛ فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار، فتتحملون شيئًا من العذاب الذي كتبه الله علينا؟

[٤٨] فرد الرؤساء المستكبرون قائلين: إنا نحن وأنتم جميعًا في جهنم، وهذا حكم الله ولا رادَّ لحكمه سبحانه، فلا يمكن أن نتحمل عنكم شيئًا من العذاب، والله جل في علاه قسم العذاب بين العباد؛ فأخذ كل واحد منا ما يستحقه، لا زيادة ولا نقصان.

[٤٩] ثم ذهب أهل النار الذين يعذبون فيها إلىٰ خزنة جهنم طالبين منهم أن يشفعوا لهم عند ربهم فقط ليخفف عنهم يومًا من عذاب جهنم، لكي يتنعموا فيه بالراحة.

---

(١) يشير إلى حديث البراء الطويل الذي رواه أبو داود (٤٧٥٣)، وأحمد في المسند (١٨٥٣٤).

قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ
قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠
إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا
وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ
وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٥٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى
ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٥٣ هُدٗى
وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ
حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ
وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ
بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ
مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ
خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧
وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ٥٨

[٥٠] ثم يرد خزنة جهنم علىٰ أهل النار علىٰ سبيل التوبيخ والتأنيب: أَوَلَمْ تأتكم رسلكم بالدعوة والحجج والبراهين الواضحة البينة؟ قالوا: بلىٰ لقد أتتنا، فرد عليهم الخزنة قائلين لهم: إذًا فادعوا أنتم بأنفسكم، ولكن اعلموا بأن دعاء الكافرين في ضلال وضياع، لأنه لا يستجاب لهم، وأن قضاء الله نافذ ولا راد لقضائه.

[٥١] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف ينصر رسله وأتباعهم من الذين آمنوا بالله في الحياة الدنيا علىٰ أعدائهم بالحجة والبرهان والغلبة والتمكين في الحياة الدنيا، وينصرهم في الآخرة يوم يقوم الأشهاد وهم الملائكة، يشهدون للرسل بالبلاغ، والأنبياء يشهدون علىٰ أممهم.

[٥٢] وفي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين المجاوزين حدودَهم معذرتهم وأسفهم حين يعتذرون، وجزاؤهم ذلك اليوم: الإبعاد والطرد من رحمة الله ومن جنته، ولهم الدار السيئة التي تسوء نازليها.

[٥٣] ثم ذكر جل وعلا مثالًا من نصره لرسله ولعباده المؤمنين، فأخبر بأنه أعطىٰ موسىٰ النبوة والتوراة ليدعو الناس ويهديهم إلىٰ صراط الله المستقيم، وأنه أبقىٰ التوراة بعد موسىٰ عليه السلام في بني إسرائيل - هدايةً لهم - يتوارثونها إلىٰ ما شاء الله. [٥٤] ثم بين سبحانه أن هذه التوراة مشتملةٌ علىٰ الهداية والعلم، وعلىٰ التذكير بالله والدار الآخرة، وينتفع بها أصحاب العقول السليمة، والفطر القويمة.

[٥٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يصبر علىٰ أذىٰ قومه كما صبر أولو العزم من الرسل، واعلم يانبي الله علم اليقين أن وعد الله لك بإعلاء كلمتك؛ وعدٌ حقٌّ، وداوم علىٰ طلب المغفرة من الله، وعلىٰ تنزيه الله وتقديسه في كل وقت وحين؛ لا سيما آخر النهار وأوله.

[٥٦] واعلموا أيها الناس أن الذين يخاصمون ويجادلون في آيات الله الدالة علىٰ وحدانيته لأجل إبطالها بغير دليل ولا حجة عندهم، هؤلاء ليس في صدورهم إلا التكبر علىٰ اتباع الحق، واحتقارٌ لمن جاءهم به، وليس ما يرومونه - من إخماد الحق وإعلاء الباطل - بحاصل لهم؛ بل إن الحق هو المرفوع، وقولهم وقصدهم هو الباطل المدحوض.

ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يعتصم بالله، فإنه سبحانه هو السميع لأقوال عباده، البصير بكل شيء، لا تخفىٰ عليه خافية، وسيجازون عليها بما يستحقونه.

[٥٧] ثم بين جل وعلا صغر حجم الناس مقابل حجم المخلوقات الأخرىٰ، فقال: لخلق السماوات والأرض - بعظمهما وسعتهما -، وما فيهنَّ وما بينهما؛ وابتداؤهما من غير مثال سابق؛ أكبر وأعظم من خلق الناس، وبعثهم مرةً أخرىٰ، فكيف ينكر المشركون البعث وإحياء الموتىٰ؟ ولكن أكثر الناس لا يعلمون عظيم قدرة الله، ولا يعتبرون فيتعظون.

[٥٨] ثم قال جل وعلا: وكما أنه لا يستوي الأعمىٰ الذي لا يُبصر بالبصير الذي يرىٰ الأشياء، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي آمن بالله وصدَّق برسوله ﷺ، وعمل الصالحات، بالكافر الجاحد الذي يعمل السيئات، ولكن قليلًا ما تتذكرون أيها الناس فتتعظون.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ
خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾
كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾
ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى
نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ
ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾

[٥٩] يخبر جل وعلا أن الساعة آتية لا شك ولا ريب في إتيانها، وكل الكتب السماوية أثبتت ذلك، والساعة: هي اللحظة التي يموت فيها جميع الخلائق عندما تطلع الشمس من مغربها، أما يوم القيامة فهو اليوم الذي يقوم الناس فيه من قبورهم، ويسمىٰ يوم البعث، ثم بين سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون بذلك ولا يصدقونه، لذلك لا يعملون للنجاة في ذلك اليوم.

[٦٠] ومن لطفه جل وعلا بعباده المؤمنين أن أمرهم بدعائه وحده لا شريك، من غير وسطاء ولا شفعاء، كما قال تعالىٰ في آية أخرىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]، ثم وعد جل في علاه من أفرده بالدعاء أن يستجيب له، أما أولئك الذين استكبروا عن عبادته، وعن الالتجاء إليه، ودعائه، وإفراده بالألوهية؛ فوعد سبحانه أن يدخلهم جهنم صاغرين حقيرين ذليلين.

[٦١] ثم ذكَّر جل وعلا أنه هو وحده الذي جعل لأجلكم أيها الناس الليل مظلمًا لتسكنوا فيه وتنقطعوا عن العمل فتستريحوا، وجعل لكم النهار مضيئًا منيرًا بالشمس لتقوموا فيه من فُرُشِكُم، وتسعوا في طلب معاشكم، إن الله لذو فضل عظيم علىٰ الناس، فنعمه علىٰ العباد لا تُعَدُّ ولا تُحْصَىٰ، ولكن أكثر الناس بجهلهم لا يشكرون النعم؛ بل هم عنها غافلون.

[٦٢] واعلموا أيها الناس أن ذلكم الذي فعل ما فعل لأجلكم؛ هو الله الذي أوجد كل موجود من العدم، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو، فكيف تنقلبون عن عبادته وتنصرفون عن توحيده فتُشركون معه غيره في العبادة؟!

[٦٣] وكما أنكم أيها الكافرون انصرفتم عن عبادة الله إلىٰ عبادة غيره مع وضوح الأدلة والبراهين، فكذلك نصرف عن التوحيد والإيمان كل من جحد آيات الله، وتحدَّىٰ وكذَّب رسله، وذلك جزاءٌ وليس ابتداءً.

[٦٤] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي جعل لأجلكم الأرض ساكنةً لتستقروا عليها، وتستقر عليها مبانيكم، وهو الذي جعل لأجلكم السماء سقفًا قائمًا دائمًا للأرض التي أنتم فيها، محكمةً لا تسقط عليكم، وهو سبحانه الذي خلقكم في أحسن هيئة، وأكمل صورة، وهو سبحانه الذي رزقكم من طيبات كل شيء من المأكل والمشرب، والمنكح، والملبس، والمنظر، وغيره، واعلموا أن ذلكم الموصوف بهذه الصفات، ودبر لكم هذه الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم هو ربكم الذي لا رب لكم سواه، ولا معبود بحق إلا هو، فتكاثر خيرُهُ وبركتُه، وتعاظم إحسانُه، الذي ربىٰ جميع العالَمين بنعمه.

[٦٥] وهو سبحانه الحي الذي له الحياة الكاملة التامَّة، لا يفنىٰ، ولا يموت، والجن والإنس يموتون، لا معبود بحقٍّ إلا هو، فأخلصوا له العبادة، وادعوه وحده - دون من سواه -، واعلموا أنه له وحده سبحانه المحامد والمدائح والثناء، وهو سبحانه الذي بفضله ربَّىٰ جميع العالَمين بِنِعَمِه.

[٦٦] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين من قومه: إني نُهيت أن أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام وغيرها، وقد جاءني علىٰ ذلك الأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة، وأمرت أن أستسلم بالتوحيد وأنقاد بالطاعة لله رب العالمين.

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ
يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ
وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا
يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ
وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ
ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن
نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾
ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى
ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

[٦٧] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي أوجدهم من العدم، وابتدأ خلق أبيهم آدم من ترابٍ، ثم خلقهم من نطفةٍ - وهي المني -، ثم من علقةٍ - وهي قطعة الدم الغليظة الحمراء -، ثم تستمرون في بقية الأطوار حتىٰ يخرجكم الله أطفالًا من بطون أمهاتكم، ثم يكبر هذا الطفل وينمو، ثم تكبروا وتشتدوا ويكتمل بناء أبدانكم وعقولكم، ثم تكبروا حتىٰ تصيروا شيوخًا، ومنكم من يموت قبل بلوغ الأشدّ، ولتبلغوا أيها الناس بهذه الأطوار والمراحل أجلًا مسمّىٰ تنتهي عنده أعماركم، ولعلكم تُعملون عقولكم في آيات الله وحججه عليكم، فتعقلون توحيد ربّكم، وتُخلصون له العبادة دون من سواه.

[٦٨] ثم ذكَّر جل وعلا عباده أنه هو وحده الذي يحيي ويميت، فإذا شاء وأراد أيَّ أمرٍ فإنما يقول له: كُنْ؛ فيكون ذلك الأمر مباشرةً بلا توقُّفٍ، ولا تمنّع.

[٦٩] ثم سأل جل وعلا نبيه ﷺ سؤال تعجب من حال هؤلاء المشركين، فقال: ألم ترَ وتتعجَّب يانبيَّ الله من هؤلاء المشركين الذين يخاصمون في آيات الله الواضحة الدلالة والظاهرة الحجَّة؟!! كيف يعدلون عنها إلىٰ غيرها، وكيف ينصرفون عنها مع وضوحها.

[٧٠] ثم بين جل وعلا عاقبة أولئك الذين جحدوا كتابَ الله فلم يُؤمنوا به، وجحدوا رُسُلَ الله فلم يصدقوهم بما جاؤوهم به من عند الله، ولم يتبعوهم؛ فأخبر بأنهم سوف يعلمون عاقبة تكذيبهم وجحدهم، ووبال كفرهم.

[٧١-٧٢] ثم بين جل وعلا هذا الوعيد، وما أعده لهم من العذاب، وأخبر بأنهم حين يدخلون جهنم سوف تُجعَلُ الأغلال في أعناقهم فلا يستطيعون الحركة معها، ويُربَطون بالسلاسل مع شياطينهم، ثم يُسحَبون ويجرجَرون في الماء الحار الذي اشتد غليانه، ثم يلقوْن في نار جهنم ويوقد عليهم اللهب العظيم حتىٰ يصيروا هم من وقود النار، نسأل الله السلامة والعافية.

[٧٣-٧٤] ثم يُقال لهم - وهم في هذه الحالة توبيخًا وتقريعًا -: أين الآلهة الباطلة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟! فيجيبون في ذلٍّ وندامة: غابوا عنَّا ولم ينفعونا، ثم يُقرُّون ببطلان شركهم وأن عبادتهم إياهم كانت باطلةً لا تساوي شيئًا، وبمثل ذلك الضلال يضلُّ الله الكافرين الجاحدين؛ حيث عبدوا أهواءهم، وعبدوا هذه الأصنام التي أوصلتهم إلىٰ نار جهنم والعياذ بالله.

[٧٥] ثم يقال لهم أيضًا: إن سبب العذاب الذي أنتم فيه: ما كنتم تظهرونه من الفرح بما أنتم عليه من الباطل، وبما كنتم تبطرون وتأشرون وتتكبرون، وتبغون علىٰ عباد الله.

[٧٦] ثم يأمر جل وعلا هؤلاء المشركين بدخول جهنم من أبوابها السبعة ماكثين فيها أبد الآبدين، لا يخرجون منها أبدًا، فبئس مسكنُ ومقرُّ المتكبرين علىٰ طاعة الله واتباع أوامره، وتصديق رُسُله.

[٧٧] فاصبر يانبي الله علىٰ تكذيب هؤلاء المشركين من قومك لك، واصبر علىٰ جدالهم، وامضِ في دعوتك وجهادك، واعلم أن وعد الله بتعذيبهم ونصرك لا شك ولا ريب فيه؛ وسواء أريناك بعض هذا العذاب الذي وعدناهم في الدنيا لتقرَّ به عينك فبها ونعمت، أو نتوفينك قبل ذلك، فاعلم أن مرجعهم إلينا يوم القيامة، وسوف نجازيهم بما يستحقون من العقاب.

وفي هذا توجيه للدعاة بالصبر علىٰ ما يلاقونه في دعوتهم من الأذىٰ والمشقة، وعدم انتظار نتائج دعوتهم؛ فالواجب عليهم أن ينشروا دين الله في كل مكان، ويتركوا الأمر لله فهو الذي يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله؛ لأن إضلالهم كان جزاءً علىٰ ضلالهم باختيارهم، ثم يجازي سبحانه يوم القيامة عباده علىٰ أفعالهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ
بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ
لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى
الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ
تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ
الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا
بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

[٧٨] ثم ذكَّر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ تسليةً له، فقال: ولقد أرسلنا من قبلك يانبي الله رسلًا كثيرين إلىٰ أقوامهم يدعونهم، فهم يصبرون عل أذاهم، وهؤلاء الرسل منهم من قصصنا عليك شيئًا من دعوتهم وما لاقوه من أقوامهم من الأذىٰ، ومنهم من لم نقصصه عليك، وفي هذا شحن لطاقة التحمل عنده ﷺ، ثم أخبر جل في علاه بأنه لا يمكن لرسول أن يأتي بمعجزة إلا بإذن الله تعالىٰ، لأن المعجزات عطايا ومنح من الله، وكل معجزة لها مناسبتها بحسب ما تقتضيه حالة المرسل إليهم، فإذا جاء الوقت المحدد للقضاء بين العباد فسوف يقضي سبحانه بين الرسل ومكذبيهم بالعدل، أما أهل الباطل الذين أصروا علىٰ كفرهم وعبدوا غيره جل في علاه، وماتوا علىٰ ذلك فسوف يخسرون، أي: يخسرون رحمة الله وعفوه ورضاه وجنته.

[٧٩] ثم بين جل وعلا شيئًا من فضله علىٰ عباده، فأخبر أنه هو الذي خلق بقدرته هذه الأنعام من أجلكم أيها الناس لتنتفعوا بها في الركوب والأكل وغيرها من المنافع الكثيرة.

[٨٠] ثم بين سبحانه أن من هذه المنافع أنها تحمل أمتعتكم وتنقلكم من بلد إلىٰ بلد؛ في الوقت الذي لم تكونوا تبلغوا هذا البلد إلا بشق الأنفس لو لم تكن هذه الأنعام موجودة، وذلك قبل وجود وسائل النقل الحديثة، ومن فضله عليكم أيضًا أنكم تُحملون علىٰ الرواحل البرية التي تنقلكم لمسافات طويلة؛ وتُحملون علىٰ هذه السفن التي تجري في البحر فتنتقل بكم من بلد إلىٰ آخر، ثم ألهمكم الله وقدركم أيها الناس علىٰ صنع هذه الوسائل الحديثة من السيارات والطائرات وغيرها التي فيها راحتكم وسرعة التنقل بكم.

[٨١] واعلموا أيها الناس أن الله جل في علاه يريكم بعض آياته الدالَّة علىٰ وحدانيته، فأيَّ آيةٍ من تلك الآيات تنكرونها ولا تعترفون بها؟ وهذا سؤال تقريري، أي: لا أحد ينكر ذلك.

[٨٢] ثم حثّ جل وعلا هؤلاء المكذبين بالاعتبار بالماضين من الأمم السابقة التي أُبيدت وأُهلكت بسبب كفرهم وضلالهم وعصيانهم أنبياءهم، فقال، أفلم يسيروا في الأرض ويتفكروا في مصارع الأمم المكذبة من قبلهم كيف كانت عاقبتهم؟ علمًا بأن تلك الأمم كانت أكثر منهم عددًا، وأشد قوة في أبدانهم، وأكثر آثارًا في العمران والحضارة والغنىٰ، ومع ذلك عندما حل بهم عذاب الله لم تغن عنهم أموالهم أو قوتهم أو عددهم شيئًا؛ بل إنه جل في علاه أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

[٨٣] ثم أخبر جل وعلا أن هذه الأمم المكذبة لما جاءتهم رسلهم بالدلائل والبراهين الواضحة فرحوا واغتروا بما وصلوا إليه من رقي في العلم فرح أشر وبطر، وظنوا أن ما عندهم أحسن مما جاءت به الرسل، ولذلك حل بهم العذاب جزاء استهزائهم برسلهم.

[٨٤] ثم بين جل وعلا حالهم عندما حلت بهم العقوبة وأُخذوا بذنوبهم؛ حيث خضعوا واستسلموا، وقالوا: لقد آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مغرورين في الدنيا من عبادة الأصنام والأوثان، ولكن هيهات فقد فات وقتها لأن الآخرة هي دار الجزاء.

[٨٥] ثم بين جل وعلا أن إيمان هؤلاء المكذبين لم ينفعهم؛ لأنه جاء في غير وقته؛ حيث آمنوا حين رأوا العذاب؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨]، ثم بين جل في علاه أن هذه سنته وشريعته في الأمم كلها، بأن الإيمان عند حلول العذاب لا ينفع ولا قيمة له، وسوف يخسر الكفار والمشركون عند نزول العذاب بهم كل شيء؛ فلا تنفعهم أموالهم، ولا أولادهم، ولا قوتهم، ولا آلهتم التي كانوا يصرفون العبادة لها.